أَوجُهٌ من الحضور الإسلامي في مدينة ميرتلة البرتغالية

حسام الدين شاشية ■

لئن تعددت الدراسات حول الأندلس؛ فإنها جاءت مُهتمة في الغالب بتاريخ الأندلُس في عموميته، أي الأندلُس كوحدة جُغرافية، ولعلنا في هذا الإطار يُمكن أن نذكُر العديد من الأمثلة ككتاب «الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلُس»[1] لحسن علي حسن، أو «دولة الإسلام في الأندلس»[2] لمُحمد عبد الله عنّان وغيرها، أو من خلال مُقاربة الموضوع زمنياً ومن أمثلة ذلك هناك كتبٌ تهتم بفترة الفتح ككتاب «فجر الأندلس»[3] لحسين مؤنس، وأخرى بالدولة الأموية ثم عهد ملوك الطوائف ككتاب «ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام»[4] لدوزي،

1 ـ علي حسن (حسن)، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس**، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1980.

2 ـ عنان (محمد عبد الله)، **دولة الإسلام في الأندلس**، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 2001.

3 ـ مؤنس (حسين)، **فجر الأندلس**، بيروت، دار المناهل، 2002.

4 ـ دوزي (رينهرت)، **ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام**، ترجمة كامل الكيلاني، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1933.

■ أكاديمي بجامعة منوبة، تونس.

وأخرى تهتم بدولة المُرابطين والموحدين بالأندلس ككتاب «الأندلس في نهاية المُرابطين ومُستهل الموحدين»[1] لعصمت عبد اللطيف دندش.

يُفسّر بعض المؤرخين ـ ومن بينهم المؤرخة الإسبانية سوزانا كوماث ـ هذه النزعة ـ أي مُقاربة الموضوع في عموميته أو زمنياً ـ بطبيعة المصادر الإخبارية التي لا تسمح بقيام دراسات جهوية حول الأندلُس في ظل غياب المادة الضرورية لمثل هذه الدراسات[2]؛ بَيْدَ أن هذا التبرير ـ ومن خلال عملية الجرد التي قمنا بها للمصادر الإخبارية حول الغرب الأندلسي ـ يبدو مُتهافتاً؛ فإن كان هذا الأخير لم يحُز على القسم الأكبر من اهتمام المصادر؛ فقد حظي باهتمام ملحوظ من الإخباريين[3].

من هُنا يُمكن التأكيد على إمكانية قيام دراسات جهوية حول الأندلس، ليس فقط لتوفر المادة الإخبارية الضرورية؛ بل كذلك لتطوّر الأبحاث الأثرية عموماً في غرب الأندلس؛ أي: البُرتغال حالياً ومدينة ميرتلة خصوصاً، وهو ما يظهر في ازدياد المنشورات حول غرب الأندلُس في السنوات الأخيرة، التي يُمكن أن نذكُر منها خصوصاً كتاب «البُرتغال الإسلامية»[4] لكريستوف بيكارد، أو «كورة باجة ومجال ميرتلة بين العصور القديمة المتأخرة والاسترداد المسيحي»[5] لسانتياغو ماثياس، و«الخزف الإسلامي بميرتلة»[6] لسوزانا كوماث، بالإضافة إلى

1 ـ دندش (عصمت عبد اللطيف)، **الأندلس في نهاية المُرابطين ومُستهل الموحدين: عصر الطوائف الثاني**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

2 ـ Gómez Martínez (Susana), *La cerámica islámica de Mértola producción y comercio*, Madrid, Universidad Complutense de Madrid, 2004, p.115.

3 ـ انظر بحثنا: «البرتغال ومدينة ميرتلة في المصادر الإخبارية العربية» (قيد الطبع).

4 ـ Picard (Christophe), *Le Portugal musulman, VIIIe-XIIIe siècles*, Paris, Maisonneuve & Larose, 2002.

5 ـ Macias (Santiago), *La küra de Beja et le territoire de Mértola entre l'antiquité tardive et la reconquête chrétienne*, Lyon, Université Lumière-Lyon 2, 2005.

6 ـ G. Susana, *La cerámica islámica de Mértola producción y comercio*

عديد من المقالات الأخرى[1]، أما باللغة العربية فتبقى هذه الدراسات محدودة جداً[2].

من هُنا تنطلقُ مُحاولتُنا المتواضعة للإسهام في تطوير الدراسات العربية الجهوية حول الأندلُس، وبالتحديد غربه من خلال مدينة ميرتلة[3] Mértola؛ حيث إن هذا القسم لم يحظ بعناية كبيرة من قبل الباحثين العرب، مُحاولة نرمي من خلالها لمُقاربة التاريخ الأندلُسي بطريقة علمية، بعيدة عن العواطف، ومفهوم «الجنة الضائعة»، الذي كثيراً ما حوَّل وجهة الباحثين من كتابة التاريخ إلى كتابة «حكايات» تستجيب لتطلعات القارئ، وما يحملهُ من أحلام حول «الفردوس المفقود».

تنطلقُ مُحاولتُنا المتواضعة للإسهام في تطوير الدراسات العربية الجهوية حول الأندلُس، وبالتحديد غربه من خلال مدينة ميرتلة، حيث إن هذا القسم لم يحظ بعناية كبيرة من الباحثين العرب.

1 ـ الموقع والجغرافيا

أ ـ الموقع

تقعُ مدينة ميرتلة في الجنوب الشرقي للبرتغال، على بُعد نحو 230 كلم من العاصمة لشبونة، وحوالى 50 كلم عن مدينة باجة، في حين لا تبعُد عن الحدود الإسبانية إلا 15 كلم، ويُشكل الامتداد الحضري للمدينة القديمة شبه

1 ـ انظر خصوصاً: دورية «الأركيولوجية الوسيطة» *Arqueologia Medieval* الصادرة عن مركز الدراسات الإسلامية والمتوسطية بميرتلة.

2 ـ يُمكنُ حصرُها تقريباً في كتابي محمد محمود النشار: **تأسيس مملكة البرتغال: السياسة الخارجية لالفونسو هنريكز ملك البرتغال**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1995؛ و**دراسات في تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1995؛ ثم كتاب محمد عبد الله عنان: **الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال**، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1995؛ فكتاب سحر السيد عبد العزيز، **تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2002؛ أو مقال محمد القاضي، «البرتغال الإسلامية»، مجلة التسامح، عدد 20، خريف 2007.

3 ـ ورد ذكر المدينة في المصادر العربية بثلاث صيغ مختلفة: ميرتلة، مرتلة، مارتلة.

جزيرة، إذ تقعُ على مُرتفع، عند لقاء وادي يانة ورافد «أويراش»، مما يجعل الماء يحيطُ بها من ثلاث جهات.

ب ـ التضاريس

تتسم ميرتلة بمشهدٍ طبيعي ذي تضاريس متوسطة الارتفاع، مع الحضور المُكثف للهضاب؛ إذ إن المدينة القديمة تقع على إحدى هذه الهضاب، أما أعلى نقطة فتوجد على مستوى 86 متراً، موقع انتصاب القصر (القلعة)، كما يتميّز المشهد الطبيعي بأهمية المجاري النهرية، إذ يلعبُ وادي يانة ـ بروافده المُتعددة كرافد «أويراش» ـ دوراً مهماً في تحديد المجال.

ج ـ وادي يانة أو النهر الغؤور

ينطلقُ وادي يانة Guadiana من الأراضي الإسبانية، وَيصُبُّ في المُحيط الأطلسي على مستوى الحدود البرتغالية الإسبانية، قاطعاً نحو 744 كلم، يتراوح عمقهُ بين 14 متراً و22 متراً، ويصل حتى 30 متراً[1].

أما بالنسبة للناحية الملاحية فغالبية أقسام الوادي غير قابلة للملاحة، إلا على مستوى مدينة ميرتلة، حتى «ڤيلا ريال دي سان أنطونيو Vila Real de Santo António». ما جعل وادي يانة يلعب دوراً مهماً في التطور التاريخي للمدينة، حيثُ يُعدّ الشريان الأساسي للمواصلات في المنطقة[2]، فهو يربط كامل جهة باجة Beja عبر ميرتلة بالبحر الأبيض المتوسط، فقد كان للتجارة النهرية أهمية كبيرة، وإن اختلفت من عصر لآخر، ففي الفترة الرومانية كان يتم تصدير المواد الفلاحية التي تنتجها المناطق المحلية كحصن شهربة أو سيربا، في حين تم في فترات أخرى تصدير المعادن كالذهب والفضة

1 ـ Barros Maria (de Fatima), *A cheia diluvial do rio Guadiana de 1976 e os trabalhos arqueologicos da Veiga em Mértola*, Mértola, Campo arqueologico de Mértola y Escola profissional de Jesus Caraça, 1999, pp.29-61.

2 ـ Da Silva Pereira Mateus (Rui Jorge), *Politicas de salvaguarda do centro historico de Mértola*, Evora, Universidad de Evora, 2004, p.304.

والنحاس التي تنتجها مناجم ألجوسترال وسان دومنغو، أما في الفترة الإسلامية فكان يتم تصدير المواد الخزفية.

وقع ذكر وادي يانة في المصادر العربية في مُناسبات مُختلفة، الأولى: عند الإدريسي في إطار ذكر المسافات بين مدينتي كركوى وقلعة رباح يقول: «وهذا النهر يأتي من مروج فوقها، فيمُر بقرية يانة إلى قلعة رباح، ثُم يصير منها إلى حصن رندة ومنهُ إلى ماردة، ثُم يمرُ ببطليوس Badajoz فيصير منها إلى مقربة من شريشة، ثم يصير إلى حصن مارتلة، فيصُب في البحر المُظلم»[1]، ثم ذكرهُ في موقع آخر تحت اسم «النهر الغؤور»، يقول: «ومدينة بطليوس مدينة جليلة في بسيط الأرض وعليها سور منيع... وهي على ضفة نهر يانة، وهو نهر كبير ويُسمى النهر الغؤور؛ لأنهُ يكون في موضع يحمل السفُن، ثم يغور تحت الأرض حتى لا يُوجد منهُ قطرة، فسُمي الغؤور لذلك، وينتهي جريهُ إلى حصن مارتلة، ويصب قريباً من جزيرة شلطيش»[2].

تتسم ميرتلة بمشهدٍ طبيعي ذي تضاريس متوسطة الارتفاع، مع الحضور المُكثف للهضاب، إذ إن المدينة القديمة تقع على إحدى هذه الهضاب، أما أعلى نقطة فتوجد على مستوى 86 متراً.

كما ذكر الحميري هذا الوادي في مُناسبتين، في إطار تعريفه بمدينة ميرتلة؛ بدايةً تحت اسم «نهر بطليوس» يقول: «مارتلة على نهر بطليوس بجزيرة الأندلس»[3]، ثم اسم «آنة»، يقول: «ميرتلة: مدينة بالأندلس شرقي مدينة باجة، بينهما أربعون ميلاً، وهي على آنة»[4].

إذن من خلال ما سبق يمكننا التأكيد على الأهمية الحيوية لوادي يانة

1 ـ الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، لايدن، مطبعة لايدن، 1863، ص 186.

2 ـ المصدر السابق، ص 183.

3 ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، لبنان، مكتبة لبنان، 1984، ص 52.

4 ـ المصدر السابق، ص 569.

بالنسبة لميرتلة على مر التاريخ، حيث يمكنُ أن نحور مقولة هيرودوت الشهيرة حول علاقة النيل بمصر بالقول: «ميرتلة هبةُ يانة».

2 ـ التاريخ الإسلامي لمدينة ميرتلة

أ ـ المصادر العربية

حاولنا في إطار هذه الدراسة المُتعلّقة بتاريخ مدينة ميرتلة الإسلامي البحث في حضور هذه الأخيرة في المصادر الإسلامية، وهو الأمر الذي قادنا للنتائج التالية:

أخذاً بمنهجية الإخباريين وكُتاب التراجم والجُغرافيين، القائمة في الغالب على الاهتمام بمراكز السلطة، ومُقارنةً بحجم ميرتلة في مجالها، إذ تُصنف من مُدن «المُستوى الثالث»، ـ يمكن التأكيد ـ وعلى عكس ما ذهب إليه عدد من الباحثين[1]، على أهمية حضُور هذه الأخيرة في المصادر العربية[2]، خصوصاً في عصر الطوائف الثاني[3] ـ والعصر الموحدي، أما عن طبيعة الأخبار الواردة في هذه المصادر فيُمكن تقسيمُها إلى: أخبار سياسية / عسكرية، وأخبار جُغرافية، وأخبار فكرية / أدبية، مع الإشارة إلى أن الأخبار السياسية / العسكرية هي التي كانت طاغية في غالب الأحيان، تلتها الأخبار الجُغرافية، ثُم الأخبار الفكرية / الأدبية.

ب ـ ميرتلة الإسلامية

رغم غياب معلومات دقيقة حول فتح المُسلمين لمدينة ميرتلة، فيمكنُ الترجيح أنها فُتحت فترة فتح أقرب «مدينة مركز» إليها؛ أي مدينة باجة عن

1 ـ من هؤلاء الباحثين يمكن أن نذكر «سانتياغو ماثياس»، «سوزانا كوماث».

2 ـ أحصينا ذكر ميرتلة 43 مرةً في المصادر العربية بمُختلف أنواعها.

3 ـ يُطلق بعض المؤرخين تسمية «عصر الطوائف الثاني» على الفترة الممتدة ما بين سقوط دولة المرابطين بالأندلس إلى بداية حكم الموحدين بالأندلس؛ أي تقريباً من 510هـ/1116م إلى 546هـ/1151م والتي شهدت فيها الأندلس ظهور ما يُقارب العشرين إمارة طائفية.
لمزيد التفاصيل حول عصر الطوائف الثاني انظر: ـ عبد اللطيف دندش (عصمت)، **الأندلس في نهاية المُرابطين ومُستهل الموحدين: عصر الطوائف الثاني**، (مرجع سابق).

طريق عبد العزيز بن موسى بن نُصير، الذي أرسلهُ والدهُ على رأس جيش لإخماد الثورة التي قامت في أشبيلية، بدعم من مدينتي لبلة وباجة[1] تقريباً سنة 94هـ/713م.

يبدو أن ميرتلة انخرطت في سلسلة الثورات التي قامت في غرب الأندلس على الأُمراء والخُلفاء الأمويين، خصوصاً منها تلك التي قامت بمدينة باجة، على غرار ثورة العلاء بن مُغيث الجُذاق سنة 146هـ/763م[2]، وثورة حيوة بن ملامس، كذلك في عهد عبد الرحمٰن الداخل[3]، بالإضافة إلى ثورة عبد الملك بن أبي الجواد الثائر بباجة وميرتلة[4] في عهد الأمير عبد الله بن أُمية[5]. ولعل تعدد الثورات ـ سواء في الفترة الأموية أو في الفترات اللاحقة ـ يقترنُ بتركيز الإخباريين أو الجُغرافيين على مناعة مدينة ميرتلة، يقول الإدريسي: «حصن مارتلة المشهور بالمنعة والحصانة»[6]، أو قول ياقوت الحموي في تعريفه للمدينة: «حصن من حصون باجة وهو أحمى حُصون المغرب، وأمنعها من الأبنية القديمة على نهر آنا»[7].

يبدو أن ميرتلة انخرطت في سلسلة الثورات التي قامت في غرب الأندلس على الأُمراء والخُلفاء الأمويين، خصوصاً منها تلك التي قامت بمدينة باجة، على غرار ثورة العلاء بن مُغيث الجُذاق.

هذه الحصانة رُبما تُفسِّرُ قيام دولة طائفية

1 ـ مجهول، **أخبار مجموعة**، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1989.

2 ـ ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي برڤنسال وإحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1983، ج 2، ص 52.

3 ـ هو عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، أول الأُمراء الأمويين بالأندلس، حكم بين 138هـ/756م و 172هـ/788م.

4 ـ ابن عذاري، مصدر سابق، ج 2، ص 125.

5 ـ هو أبو محمد عبد الله بن محمد، سابع الأمراء الأمويين بالأندلس، وحكم بين 276هـ/889م ـ 300هـ/912م.

6 ـ الإدريسي، **نزهة المُشتاق**، مصدر سابق، ص 179.

7 ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله)، **معجم البُلدان**، بيروت، دار صادر، 1977، ج 5، ص 242.

بالمدينة رغم حجمها المُتواضع في عصر الطوائف الأول، وهي إمارة بني طيفور التي تواصلت من 424هـ/1033م إلى 435هـ/1044م[1]، لتُلحق فيما بعد بدولة بني عباد حتى سقُوطها في يد المُرابطين سنة 483هـ/1091م، عندما سلمها المُعتد باللّه بن المُعتمد المُتحصّن بها إلى هؤلاء[2].

بعد حديث المصادر الإخبارية عن سيطرة المُرابطين على المدينة، تصمتُ عن ذكرها ما يُقاربُ نصف قرن؛ أي إلى حدود سنة 539هـ/1144م، تاريخ قيام ثورة المُريدين بزعامة أحمد بن الحسين بن قسي[3]، الذي جعل مدينة ميرتلة عاصمةً لحُكمه، وكاد يُسيطر انطلاقاً منها على كامل الأندلس، لولا تدخل الموحّدين سنة 541هـ/1147م.

لئن كانت مدينة ميرتلة من بين أوائل المُدن التي سيطر عليها الموحدون في الأندلس؛ فإن سيطرتهم النهائية عليها لم تكن إلا في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة 552هـ/1157م، يقول ابن عذاري: «وفي هذه الحركة خرج تاشفين اللمتوني من مرتلة... وهذه البلدة ـ أعني مرتلة ـ أولُ مدينة خرج عنها المُلثمون، وآخرُ بلدةٍ ثار فيها المُرتدّون على الموحّدين»[4].

عرفت ميرتلة في ظل حكم الموحّدين نوعاً من الازدهار، يعُود بالخصوص للجوء سكان باجة إليها، بعد سقوط مدينتهم نهائياً في يد المسيحيين في شهر ذي الحجة سنة 573هـ/يونيو 1178م، فبسقوط هذه الأخيرة تطور حجم مدينة ميرتلة من الناحية الإدارية؛ إذ أخذت مكانة باجة في الجنوب الغربي من دولة الموحدين، ومن الناحية المعمارية؛ وهو

1 ـ ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1997، ج 2، ص 20.

2 ـ عبد الواحد المراكشي (محيي الدين أبو محمد)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق وتقديم محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994، ص 125 ـ 126.

3 ـ انظُر ترجمة أحمد بن قسي عند ابن الأبار، (أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أبي بكر القضاعي البلنسي)، **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، 1985، ج 2، ص 197 ـ 201.

4 ـ ابن عذاري، **البيان المُغرب**، مصدر سابق، ج 2، ص 57.

ما يظهر خصوصـاً في مجموعة المعالم الأثرية التـي تعود إلى هذه الفترة، والتي سنتعرفُ عليها لاحقاً.

من ناحية أخرى وفي إطار تتبعنا لحضور ميرتلـة في المصادر العربية، فإن هذا الخبـر الأخير الذي ذكرناهُ حول لُجوء سـكان مدينـة باجة إليها، والـذي أوردهُ ابن عـذاري في **البيان المُغـرب**[1]، يعدّ آخر خبـر يُذكر حول المدينـة فـي المصـادر التاريخيـة العربيـة، لتبقى الفتـرة المُمتـدة بين 573هـ/1178م و635هـ/1238م ـ تاريخ سُقوطها في يد قوات «سانشو الثاني» Sancho II[2]؛ أي حوالى ستين سنة ـ فجوةً تاريخية، لا يُساعدُ في تقليصها إلا حمـلات الحفريات الأثريـة، التـي أثبتت ـ من خلال الكميات المهمة من الأدوات الخزفية التي عُثر عليها ـ تواصل انخراط مدينة ميرتلة الكامل في الحركة التجارية بالبحر الأبيض المُتوسط.

تتعدّد المعالم التاريخية بمدينة ميرتلة بتعدد الحضارات التي تعاقبت عليها، من عصور ما قبل التاريخ، إلى الفترة الرومانية، فالعصور المسيحية ثم الحضور الإسلامي.

3 ـ المعالم الإسلامية في مدينة ميرتلة

تتعـدّد المعالـم التاريخية بمدينـة ميرتلة بتعدد الحضارات التـي تعاقبت عليها، من عصور ما قبل التاريخ، إلـى الفترة الرومانية، فالعصور المسيحية ثم الحضور الإسلامي، الذي سنحاول في هذا العنصر الكشف عن بعض أوجهه من خـلال تقديم المعالم الإسـلامية، تقديـم اعتمدنا خلاله منهجيةً تقوم على الموقـع الجُغرافي للمعلـم، فبدأنا بتلك التـي تقع خارج أسوار المدينة القديمة، ثم التي بداخلها.

1 ـ ابن عذاري، **البيان المُغرب**، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص134.

2 ـ سانشو الثاني: هو ملك البُرتغال الخامس، كان في العشرين من عمره عندما تولى العرش سنة 1223، يُلقب بـذي الثوب الكهنوتي؛ نظراً لقُربـه من رجال الدين، وقد تمكـن البرتغاليون في عصره من السـيطرة على عديد من القلاع والمُدن الإسـلامية الهامة في غـرب الأندلس، على غرار «إلفاس» سنة 1226؛ «سيربا» أو حصن شـهربة، بالإضافة إلى ميرتلة سنة 1238م، ورغم هذه الفتوحات المهمة التي حققها سانشـو الثاني فقد خُلع في سنة 1245م نظراً لأنهُ لم ينجب ولياً للعهد، فنُصب مكانهُ أخوهُ ألفونسو الثالث.

أ ـ المقبـرة الإسلاميـة

تحتـل المقبرة الإسـلامية بميرتلـة موقع ما يسـمى اليوم «روسـيو دو كارمو»، خارج أسـوار المدينة القديمة، من الناحية الشـمالية، مُمتدة على حوالـي 21500م2[1]، وهـو الموقع نفسـه الذي وجدنـا به «بازيليـك العصر المسـيحي المُبكـر»، من هنا فـإن الترجيحـات تذهب إلـى أن تاريخ هذه المقبرة يعود إلـى بداية الحضور الإسـلامي في المدينـة؛ أي تقريباً بداية القرن الثامن الميلادي، حيث إن المُسـلمين وجدوا في المقبرة المسـيحية موقعاً مُناسباً لدفن موتاهم، فلم يتحرّجوا من مُشاركة المسيحيين مقبرتهم، وهو الأمر الذي أثبتتهُ الأبحاث الأثرية، فقد تمّ العثور في الموقع نفسه على هياكل عظمية إسلامية، وأخرى مسيحية، تعود تقريباً إلى الفترة نفسها[2].

عُثر في المقبرة الإسـلامية بميرتلـة على حوالى 99 قبـراً، لا تحمل منها شواهد سوى ستة قبور، منها اليوم أربعة «بالمتحف الوطني الأثري البرتغالي»، وواحد فـي متحف «يابـرة» Evora، أمـا الأخير فنجـدُه بالمتحف الإسـلامي بميرتلة[3]، وتعود أقدم هذه الشواهد إلى مُنتصف القرن العاشر الميلادي، وهي لإسحاق بن فارس الأنصاري، المتوفى في رجب من سنة 346هـ/957م، في حين إن أحدثها تعود إلى بداية القرن الثاني عشـر الميلادي، وهي للشـيخ أبي بكر يحيي بن عبد اللّٰه الحواري، المُتوفى في ذي الحجة من سنة 598هـ/1202م.

ب ـ سور المدينة والأبواب

يُحيط السـور بمدينة ميرتلة من أربع جهات، ويبلُـغ طولهُ حوالى 1000 متر، لتبلغ المسـاحة الداخلية التي يحيط بها ما يقارب 6 هكتارات، ويشتمل على أربعة أبواب هي:

باب باجة الذي يقع في الناحية الشـمالية، ويُعد البوابة الرئيسـة للمدينة،

1 ـ Candon (Morales), *A necropole islamica de Mértola*, Museu de Mértola, (Arte Islamica), Mértola, Campo Arqueologico de Mértola, 2001, p.85.

2 ـ G. Susana, *La cerámica islámica de Mértola producción y comercio*, p.207.

3 ـ Macias (Santiago), «Société et vie matérielle à l'époque almohade dans le Gharb al-andalus», In *Averroès et l'averroisme*, par André Bazzana, Nicolas Bériou, Pierre Guichard, Universitaire de Lyon, 2005, p.37.

يفتح مُباشرةً باتجاه طريق باجة، ثم باب «كنيسة الرحمة» أو «ميساري كورديا»، الذي يقع في الناحية الجنوبية الشرقية، يُسمى كذلك «باب الوادي»؛ نظراً لأنهُ يفتحُ على الوادي مُباشـرةً، وهو ما يُرجـح أن عملية الولوج بالنسـبة للتجار أو الصيادين أو الجنود كانت تتم عبر هذا الباب القريب كذلك من ميناء ميرتلة[1]، يليه باب «الثقب» أو «بوراكو» من الناحية المقابلة؛ أي الجهة الجنوبية الغربية، مُقابل رافد «أويراش»، ويبدو أنهُ من خلال هذا الباب كانت تتم عملية التواصل بين مدينة ميرتلة وبقية مُدن الغرب Algarve، على غرار شلب Silves، فارو Faro، وغيرها من المُدن الساحلية في جنوب البرتغال على المُحيط الأطلسي، ثم الباب «المُزيف» أو «باب الغـدر»، الذي يقع في الناحية الشـمالية الغربية، ويعد أحد أبواب القصر، ويؤرخُ إنشاؤهُ بنهاية القرن الثالث عشـر الميلادي[2]، أما وظيفتهُ فقـد كانت مُرتبطة بالأنشـطة العسـكرية لفرسان سانت يعقوب، كالقيام بهجمات خاطفة على المناطق المُحيطة بميرتلة، والتي لم تسـقط حتى 1250م، كمـا أن هذا الباب كان يُمثـل نظرياً بوابة النجاة الأخيرة في حالة سقُوط المدينة.

أما بالنسبة للفترة الإسلامية، فقد حضر ذكر ميرتلة في المصادر الإخبارية في الغالب مُترافقاً بالحديث عن حصنها، «المشهور بالمنعة والحصانة» كما يقول الإدريسي.

تبـدو ظاهرة التحصيـن بجهة ميرتلـة ظاهرة قديمة، وهو ما يمكن الوقوف عليه من خلال حصـن آخر يحيط بالمدينة، ويعود إلى العصر الحديدي، ما بين القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، أما بالنسبة للفترة الإسـلامية، فقد حضـر ذكر ميرتلة فـي المصادر الإخباريـة في الغالب مُترافقـاً بالحديث عـن حصنهـا، «المشـهور بالمنعـة والحصانة» كمـا يقول الإدريسي[3]، وهو «أحمى حصون المغرب وأمنعها» على حد عبارة ياقوت الحموي[4].

إذن من هاتين الإشـارتين يُمكن التأكيد على حُسـن وضعية وبناء سـور ميرتلة في الفترة الإسلامية، فقد عرف حملات ترميم مُتواصلة لعلها ارتبطت

1 ـ زيارة ميدانية للموقع بتاريخ: 2010/07/04.

2 ـ M. Santiago, *La küra de beja et le territoire de mértola*, p.266.

3 ـ الإدريسي، **نُزهة المُشتاق**، (المغرب وأرض السودان)، ص 179.

4 ـ الحموي، **معجم البلدان**، مصدر سابق، ج 5، ص 242.

بكُل ثورة قامت بالمدينة؛ أي في إطار استعدادات الثائرين لإنجاح ثورتهم، وهو الأمر الذي يجعل بعض الباحثين يذهبون للحديث عن أشغال مهمة قامت بالسور في النصف الثاني من القرن التاسع ميلادي؛ أي مع ثورة عبد الملك بن أبي الجواد[1]، وهو الذي يذكرهُ ابن عذاري في إطار الحديث عن «جملة الثوار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله بن أُمية، يقول: «ومنهم عبد الملك بن أبي الجواد، اقتعد مدينة باجة وملكها، وتحصن بحصن مارتلة، ولهُ حظ من المنعة تشييداً وعُدة»[2].

كذلك يبدو أن سور المدينة عرف عمليات ترميم واسعة، خصوصاً الجهة الشمالية منهُ، وتُؤرخُ هذه الأشغال بسنة 1171م، وهي السنة التي أمر فيها أبو حفص أخو الخليفة أبي يعقوب ببناء البُرج الشمالي الغربي، كما أنها الفترة نفسها التي يعود إليها إنشاء الحي الموحدي المُحاذي للسور، ما يعني أن إنشاء هذا الحي ما كان ليتم لو لم يُدعم تحصين السور[3]، خصوصاً في تلك الفترة التي تصاعدت فيها التهديدات المسيحية.

ج ـ الجامع

يقعُ جامع ميرتلة داخل أسوار المدينة من الناحية الشمالية، أسفل مُرتفع القصر، مُشرفاً على جزء مهم من المدينة، حيث تُوجد اليوم «كنيسة ماتريز».

لا يُؤرخُ على وجه الدقة تاريخ بناء الجامع، فرغم أن بعض الباحثين كـ «توراش بالباش»[4]، و«كريستيان أيوارت»[5]، يؤرخانِ بناءهُ بالقرن الثاني عشر، اعتماداً على الشكل المعماري الموحدي المستعمل في البناء، فإننا نرى هذا التحديد غير دقيق؛ لأنه إن حضرت اللمسة المعمارية الموحدية في الجامع، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أنهُ يعود إلى العصر الموحدي؛ أي القرن الثاني

1 ـ M. Santiago, *La küra de beja et le territoire de mértola*, p.260.

2 ـ ابن عذاري، **البيان المُغرب**، مصدر سابق، ج 2، ص125.

3 ـ M. Santiago, *La küra de beja et le territoire de mértola*, p.260-261.

4 ـ Torres (Balbás. L), «El mihrab almohade de Mértola (Portugal)», *Al-Andalus*, N°.20, 1955, pp.188-195.

5 ـ Ewert (Christian), «La mezquita de Mértola (Portugal)», *Cuadernos de la Alhambra*, N°.9, 1973, pp.3-36.

عشـــر، خاصةً وأن العديد مـــن المباني في تلـــك الفترة عرفـــت عمليات ترميم وإعادة بناء واسعة، كذلك فإن عدم العثور خلال الحفريات الأثرية على مساجد أخرى بميرتلة يؤكد أن هذا الجامع هو نفسهُ الذي استعمله المارتليون منذ الفتح الإسلامي، فقد فتحت حملات الحفريات المُختلفة بموقع الجامع إمكانية الحديث عن وجود معبد روماني، تـــدُل عليه قطعة مرمرية، وبعض الأعمدة التي تعود إلى الفتـــرة الرومانية[1] أو كنيســـة تعود إلـــى الفترة المســـيحية المُبكـــرة[2]؛ أي أن المُســـلمين حولوا هذه الكنيســـة إلى جامع، كذلك ومن خلال حمـــلات الحفريات ظهـــر إمكانية وجود محراب يعود إلى الفترة الأموية[3].

من خلال بحثنا في المصادر التاريخية أمكننا الوقوف لأول مرة على خطيب جامع ميرتلة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ميلادي، ألا وهو عُمر بن مُحمد بن فرج الأنصاري، ويكنى أبا حاتم.

من جهةٍ أخرى ومن خلال بحثنـــا في المصادر التاريخية أمكننا الوقوف لأول مرة على خطيب جامع ميرتلة في النصـــف الثاني من القرن الثاني عشـــر ميلادي، ألا وهو عُمر بـــن مُحمد بن فرج الأنصاري، يكنى أبا حاتم، يقول عنـــهُ مُحمد بن عبد الملك في الســـفر الخامس من كتاب **الذيـــل**: «روى عن أبي عبد الله بن أبي العافية، روى عنهُ أبو عمران الزاهد المارتلي، مُقيم أشـــبيلية، وكان مُقرئـــاً مُجوداً، فاضلاً ديناً، فقيهـــاً حافظاً، أديباً صالحاً، وخطـــب بجامع بلده مارتلة وولي الصلاة به»[4]، كمـــا ترجم لهُ ابن الأبار بالقول: «من أهل ميرتلة بغـــرب الأندلس، يُكنى أبا حاتم، كان مُقرئاً، أديباً وولي الصلاة والخُطبة ببلده، روى عنهُ أبو عمران الميرتلـــي الزاهد»[5]. كما وقفنا على شـــخصية ميرتلية أخرى تعود إلى الفترة نفســـها؛ أي أواخر القرن الثاني عشـــر، بداية القرن الثالث عشـــر، وهو أبو عبد الله بن مالك المارتلـــي في إطار ترجمة

1 - G. Susana, *La cerámica islámica de Mértola producción y comercio*, p.186.

2 - Torres (Claudio), «Mértola, Vila Museu», Museologia, N°.1, 2007, p.7.

3 - زيارة ميدانية إلى موقع الجامع برفقة الأستاذة سوزانا كوماث، بتاريخ 2010/08/26.

4 - ابن عبد الملك المراكشـــي (أبو عبد الله محمد)، **الســـفر الخامس من كتـــاب الذيل والتكملة الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1965، ص465.

5 - ابن الأبار (مُحمد بن عبد الله القضاعي)، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد الســـلام الهراس، لبنان، دار الفكر، 1995، ج3، ص154.

إبراهيم بن مُحمد الأصبحي، الــذي روى عن هذا الأخير، و«أخــذ عنهُ القراءات السبع، وأجاز لهُ في شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (1183م)»[1].

هكذا إذن ومما سبق يمكنُ القول: إن عملية إعادة البناء التي عرفها الجامع في الفتــرة الموحدية ترافقت مع تطور حجمه، ودورهِ، الــذي يبدو أنهُ قد تجاوز الدور الديني إلى الــدور العلمي الفكري، أســوةً بالجوامع الأندلســية الكبيرة، فنحنُ نجدُ أشــهر صوفيّ العصر ـ أي: أبا عمران المارتلي أو الميرتلي[2] ـ تلميذاً للإمام أبي حاتم، من خلال روايتهِ عنهُ، وأبو عمران هذا هو الذي ســيكون فيما بعد أستاذاً لأشــهر المتصوفين في التاريخ الإسلامي؛ أي مُحيي الدين بن العربي الذي ترجم لهُ فــي كتابه «رســالة روح القُدُس»[3]، وهذا أمــر مُرتبط بالأحداث السياســية والعســكرية التي عرفتها منطقة غرب الأندلــس؛ أي عملية الانزياح المُتواصلــة للمركــز أمام تقدم قــوات «ألفونســو هنريكــز» Afonso Henriques وحلفائه على حساب المُســلمين، حيث إننا في حالة ميرتلة نجدُ هذه العملية قد تمت بعد سقوط باجة أول مرةٍ سنة 568هـ/1172م، ثم نهائياً في سنة 1178م.

يُعدّ جامع ميرتلــة الموقع الوحيد فــي البُرتغال الذي مــن المؤكد أنهُ كان جامعاً في الفترة الإسلامية، كما تجدرُ الإشارةُ بدايةً إلى أن البنية المعمارية لما يُسمى اليوم بكنيسة «ماتريز» لا تعكسُ في الغالب البنية الحقيقية لهذا الجامع في العصر الموحدي، وهو الأمر الذي كشــفت عنهُ لوحة «دوارت دارماش» التي

1 ـ ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، مصدر سابق، ص 209.

2 ـ أبو عمران الميرتلي: هو أبو عُمران موسى بن حسين بن عُمران الزاهد، يُعرف بالميرتلي، وأصلهُ من ثغر ميرتلة، سار بإشــبيلية في طريق الزُهاد، وكان المُلوكُ يزورونهُ ولا يلتفت إليهم، وتوفي سنة أربع وستمائة (1207م). وقد تُرجم لهُ:

ـ ابن الأبار (مُحمد بن عبد الله القضاعــي)، **المُقتضب من كتاب تحفة القادم**، تحقيق إبراهيم الأبياري وطه حسين، مصر، وزارة التربية والتعليم، د. ت، ص 92.

ـ ابن سعيد المغربي (علي بن موســى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد اليحصبي)، **المُغرب في حُلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، 1964، ج 1، ص ص 406، 407.

ـ ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى الاندلســي)، **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، تحقيق إبراهيم الأبياري، مصر، دار المعارف، 1998، ص 136.

3 ـ ابن العربي (مُحيي الدين)، **شــرح رســالة رُوح القُدس**، تحقيق محمود الغراب، مصر، مطبعة نصر، 1994، ص 91.

قام برسمها في بداية القرن السادس عشر[1]، فقد عرف الجامع في نهاية هذا القرن عملية إعادة بناء واسعة طمست ملامحهُ الموحدية، وهو ما كشفت عنهُ نصوص فُرسان سانت يعقوب، هذه النصوص التي أظهرت خطأ الاعتقاد الذي كان قائماً لسنوات عديدة، والذي كان يؤكد أن تخطيط الكنيسة الحالي هو نفسهُ تخطيط الجامع الموحدي[2].

لئن كانت الواجهة الجنوبية هي الواجهة الرئيسة في كنيسة «ماتريز»؛ فإن الشك يبقى قائماً حول مكانتها في الجامع الموحدي؛ نظراً لوجود بوابة أخرى تفتح على الحي الموحدي، تظهر في رسم آخر لـ «دورات دارماش»، ومع ذلك فإننا نُرجح أن الواجهة الرئيسة الحالية للكنيسة هي نفسُها كانت الواجهة الرئيسة للجامع؛ وذلك نظراً لأن الباب الموجود بهذه الواجهة يفتحُ على الجزء الأكبر من مدينة ميرتلة، مما يرجح أن البوابة الثانية قد أُنشئت بهدف تسهيل ولوج القاطنين بالحي الموحدي إلى الجامع، كما أنهُ يظهر من خلال تقريب صورة «دورات دارماش» وجود ما يبدو أنهُ نقيشة تذكارية، نجدها عادةً في المعالم الإسلامية قُرب المدخل الرئيس.

يُعدّ جامع ميرتلة الموقع الوحيد في البُرتغال الذي من المؤكد أنهُ كان جامعاً في الفترة الإسلامية، كما تجدرُ الإشارةُ إلى أن البنية المعمارية لما يُسمى اليوم بكنيسة «ماتريز» لا تعكسُ البنية الحقيقية لهذا الجامع في العصر الموحدي.

يظهر كذلك من خلال لوحة «دورات دارماش» وجود غرفة صغيرة في الجهة الشرقية، وهو ما يؤكدهُ اليوم بقاء الباب المؤدي من الجامع إلى هذه الغرفة المُستطيلة الشكل، ذات السقف الأحادي المُنحدر، والمُغطى بالقرميد، أما بالنسبة لدورها ونظراً لأنها توجد في حائط «القبلة»، مُحاذية للمحراب من الجهة اليمنى، فنحن نعتقد بأنها كانت «غُرفة الإمام»؛ أي الغرفة التي يخرجُ منها الإمام لإلقاء خُطبة الجمعة، أو لإمامة الناس عند الصلاة.

1 ـ M. Santiago, «Société et vie matérielle à l'époque almohade dans le Gharb al-andalus», p.36.

2 ـ حول هذه النصوص انظر: Barros (Joaquim), *As comendas de Mértola e Alcaria Ruiva, As visitaçoes e os tombos da Ordem de Santiago (1482-1607)*, Mértola, Campo Arquiéologico de Mértola, 1996.

تتميزُ الواجهة الشـمالية بوجود ثلاثة أبواب، ذات تخطيط موحدي، لم يبق منها سـوى الباب الثالث الذي يقع في أقصى الجهة اليُسرى؛ نظراً لأنهُ في عملية البناء تم توسـيع هذه الناحية بنحو ثلاثة أمتار مما جعل البوابتين الوسـطى والثالثة مُلحقتين بالكنيسة، ويشـكّل اليوم هذا الباب الأخير بوابة غرفة القساوسة والرهبان، ولا زال هذا الباب مُحافظاً على كامل خصوصياته المعمارية الموحدية، باسـتثناء الدعامة اليُسـرى، التي رُبمـا وقع تدميرُها خلال عمليات الترميم، أما الباب الأوسـط فلم يبق منهُ سـوى الجزء الأعلى الذي يتخذ شـكلاً مُقوسـاً، ولعل أهم ما يُميز هذا الباب هي تلك المنطقة الصغيرة المُحاذية لهُ من الجهة اليسرى، التي تبدو وكأنها القطعة الوحيدة الباقية من جدار الجامع.

لا يُمكن اليوم الوقوف على مُميزات الواجهة الغربية بكنيسـة «ماتريز»، غيـر أنهُ ومن خلال رسـم «دارماش» لهـذه الواجهة التي تفتـح على الحي الموحدي، يمكننا الوقوف على بوابة ذات شكل مُقوس، مُزينة بخطوط أُفقية، بالإضافـة إلـى الصومعة التي يظهـر أنها كانت مُسـتقلة عن البنـاء العام للجامع، وتتخذ شكلاً مُربعاً.

تبلغُ المسـاحة الداخلية لكنيسـة «ماتريز» نحو 300م2، وهي المساحة نفسها التي يُرجح أن قاعة الصلاة كانت تبلغُها[1]، ويحضر اليوم بالكنيسة 12 عموداً، في حين أن تخطيط الجامع كان يقوم على 20 عموداً، ويذكّر خصوصاً بتخطيط جامع موحـدي آخر هو جامع «تينملل» الموجـود بالمغرب، بالقرب من قبر «المهدي بن تومرت»، والذي تم إنشـاؤهُ تقريباً في الفترة نفسـها؛ أي: النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

يُعدّ محراب جامع ميرتلة ـ الذي لم يتم اكتشافه إلا في أربعينات القرن العشـرين في إطار عمليات الترميم التـي عرفتها الكنيسـة[2] ـ قطعة فريدة ووحيدة في فن العمارة الإسلامية في البُرتغال، ويتخذ هذا المحراب ـ الذي

1 ـ Ibid, p.271.

2 ـ M. Santiago, Mértola, le dernier port de la Méditerranée, p.276.

يبلغُ طولهُ تقريباً نحو أربعة أمتار[1] ـ شكلًا مُستطيلًا طولياً، تعلوهُ قبة عريضة نسبياً. كما نُلاحظُ داخل حائط المحراب ـ الذي يتخذُ بدورهِ شكلاً نصف أسطواني ـ وجُود تجويف طولي، مُزين ببقايا زخرفات من معجون المرمر ذي اللون الأحمر الشفقي، كما يقوم تزيين الحائطين الجانبيين للمحراب والحائط الرئيس على زخرفات نباتية أو فن التوريق؛ أي زخارف مُشَكلة من أشكال أوراق النباتات، ويؤكد «توراش بالباس» أن تزويق هذا المحراب وتصميمهُ يُشبه إلى حد كبير محراب جامع المرية الكبير[2].

يُعدّ محراب جامع ميرتلة ـ الذي لم يتم اكتشافه إلا في أربعينات القرن العشرين في إطار عمليات الترميم التي عرفتها الكنيسة ـ قطعة فريدة ووحيدة في فن العمارة الإسلامية في البُرتغال.

د ـ القصبة

تقع القصبة في أقصى الجهة الشمالية الغربية لمدينة ميرتلة، بمُحاذاة السور، في أسفل الربوة التي يقع عليها القصر، حيثُ يوجد الحي الموحدي الذي تُرجح الحفريات الأثرية أنهُ يعود إلى أواخر سبعينات القرن الثاني عشر، وبالتحديد سنة 1178م، وهي السنة التي استولى فيها المسيحيون بقيادة «ألفونسو هنريكز» على مدينة باجة بصفة نهائية، يقول ابن عذاري: «و تمادى سكنى باجة على ما ذكرتهُ إلى أن رحل الخليفة عن الأندلس، وترك والياً على أشبيلية أخاهُ أبا علي الحسن، فمشى النظر على بعض ما تقدم إلى أن نكث العهد اللعين ابن الرنك، وخرج بجمعه إلى باجة، ونازلها... ثم أقلع عنها ووصل إلى جهة أشبيلية ودخل قرية طريانة، وتغلب وحرق القطائع في وادي أشبيلية وانصرف فوجد باجة البائسة قد أقفرها أهلُها وخرجوا منها بأولادهم وعيالهم، وتفرقت جميعُ أموالهم وفروا على وجوههم إلى مرتلة، وذلك في شهر مُحرم من عام أربعة وسبعين وخمسمائة (يونيو 1178م)»[3]، فمن هنا يمكن

1 ـ Ewert Christian, «La Mezquita de Mértola», p. 28.

2 ـ Torres, Balbás, «El mihrab almohade de Mértola (Portugal)», p. 193.

3 ـ ابن عذاري، **البيان المُغرب**، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص 134.

القول إن نزوح سـكان مدينة باجة ولجوءهم إلى ميرتلة قد فرض إنشـاء هذا الحي الموحدي لاستيعاب وفُود المُهاجرين.

يقوم تخطيط هذا الحي على خمسـة طُرق، تحدهُ الثلاث طرق الأولى، على التوالي من الجهات الشـمالية، والغربيـة، والجنوبية، في حيـن أن الطريقين الآخرين يقطعانهِ بصفـة عرضية، فنجـدُ الطريق الأول مُنتظماً، ويتخذ شـكلاً مُسـتقيماً، في حين نجدُ الطريق العرضي الثاني مُتعرجاً، في توافق مع مُميزات أنهج وأزقة المدينة العربية التقليدية. ويضم هذا الحي ـ بحسب ما كشفت عنهُ الحفريات ـ خمسة عشـر منزلاً، تختلفُ من حيث المسـاحة من منزلٍ إلى آخر بحسب مُستوى العائلة التي كانت تقطنهُ، مُتميزةً بطابعها المُتوسطي، الذي يقوم على استعمال القرميد، وصحن تتوسطهُ مساحة مُخصصة لنباتات الزينة.

هـ ـ القصـر

يقع القصر أو القلعة على مُرتفع في الجهة الشـمالية الغربية من مدينة ميرتلة، ناحية رافد «أويراش»، ويفصل بينهُ وبين بقية مكونات المدينة مُنحدر حاد يمنع إنشـاء أي بناء، الأمر الذي يجعل اختيارهُ كمركز للسـلطة على مر العصور أمراً مُبرراً؛ لأنه يشرف على كامل المدينة، ونظراً لأن السلطة قائمة على علاقة فوقية بين الحاكم والمحكوم، تتجسّـد فـي جملة من الرموز التي لعلنا نجدهـا هنا في موقع القصر الـذي يرمز إلى علوية الحاكم، وقداسـة السلطة، التي يفرضُ الوصول إليها صعود ذلك المُنحدر الحاد.

وقع ذكـر القصر في المصـادر العربية مرتين: المـرة الأولى في إطار الحديث عن استسـلام المُعتد باللّه بن المُعتمد بن عبـاد، المُتحصّن بحصن ميرتلـة للمُرابطين تقريبـاً في سـنة 1095م، يقول عبد الواحد المراكشـي: «وانتُهبـت قصـور المُعتمد نهبـاً قبيحاً، وأُخذ هـو قبضاً باليـد، وجُبر على مُخاطبـة ابنيـه: المُعتد بـاللّه، والراضي بـاللّه، وكانا بمعقلين مـن معاقل الأندلس المشـهورة، ولو شـاء أن يمتنعا بهمـا لم يصل أحـدٌ إليهما، أحد الحصنين يسـمى رندة، والآخـر مارتُلة... ونـزلا عن الحصنيـن بعد عهود مُبرمة، ومواثيق مُحكمة، فأما المُعتد باللّه فإن القائد الواصل إليه قبض عند

نزوله على كُل ما كان يملكهُ، وأما الراضي باللّه، فعند خروجه من قصره قُتل غيلةً وأُخفي جسدهُ»[1].

أما المرة الثانية التي ذُكر فيهـا القصر، والتي تُعدّ الأهم فقد كانت في إطار الحديث عن «ثورة المُريدين»، التي استمدت زخمها من الفكر الصوفي المُنتشـر في تلك الفترة[2]، هذه الثورة التي قامت في أعقاب دولة المُرابطين بالأندلس، وكانت بقيادة أبي القاسم أحمد بن قسي[3]، الذي سيطر رجالهُ على المدينة في سـنة 1144م، يقول ابن الخطيب: «وتوجه ابن قسـي إلى مرتلة، فاحتل قصبتها المنيعة غُرة ربيع الأول عام 539هـ (سـبتمبر 1144)، وبـث للحيـن عقيدتهُ وتسـمى إماماً»[4]، وهو الخبر الذي يؤكدهُ ابن الأبار بأكثر تفصيل يقول: «وأمرهـم (ابن قسـي) أن يغدروا قلعة ميرتلة ـ وهـي إحدى القـلاع المنيعة بغرب الأندلـس ـ في وقت رسـمهُ لهم في هذه السـنة القارضة مُلك اللمتونيين بمقتل تاشـفين أميرهم، في رمضان منها، فكمنوا بالربض ـ وهم سـبعون رجُلاً ـ سـحر ليلة الثاني عشـر من صفر 539هـ (14 آوت 1144)، بعد أن قتلوا بوّاب القلعة، وأعلنوا بدعوة ابن قسي، وأقاموا على ذلك إلى أن وصلهم في غرة شهر ربيع الأول في جمع وافر من المُريدين شـعارهم التهليل والتكبير، فصعد إلى قصبتها واحتل قصرها، وشرع في مُخاطبة أعيان البلاد مُحبباً وللفتنة مُحزباً»[5].

يقع القصر أو القلعة على مُرتفع في الجهة الشمالية الغربية من مدينة ميرتلة، ناحية رافد «أويراش»، ويفصل بينهُ وبين بقية مكونات المدينة مُنحدر حاد يمنع إنشاء أي بناء.

1 ـ المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، مصدر سابق، ص125 ـ 126.

2 ـ حول هذه الثـورة انظر: القسـم الأول من كتاب «**خلـع النعلين واقتبـاس النور من موضع القدمين**»، لأحمد بن قسـي، دراسـة وتحقيق محمد الأمرانـي، مراكش، كليـة الآداب والعلوم الإنسانية، 1997، ص13 ـ 151.

3 ـ انظر ترجمة أحمد بن قسي عند: ابن الأبار، **الحلة السيراء**، مصدر سابق، ج2، ص197 ـ 201.

4 ـ ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أحمد السليماني)، **أعمال الأعلام**، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، 1956 ص251.

5 ـ ابن الأبار، **الحلة السيراء**، مصدر سابق، ج2، ص198 ـ 199.

إذن من هنا يمكننا التأكيد على ما ذهبنا إليه سابقاً؛ أي أن القصر أو القلعة كانت مركز الحُكم في الفترة الإسلامية سواءٌ مع الراضي باللّه بن المُعتمد بن عباد، أواخر عصر الطوائف الأول أو مع ابن قسي في عصر الطوائف الثاني، وهو الأمر الذي يمكن أن نسحبهُ على بقية الفترات التي تمتعت فيها المدينة باستقلال ذاتي؛ أي مع عبد الملك بن أبي الجواد الذي ثار بالمدينة بداية القرن التاسع ميلادي[1]، أو ابن طيفور الذي أقام دويلة طائفية بها بداية عصر ملوك الطوائف الأول؛ أي من سنة 1033م إلى سنة 1044م[2]، وأبي مُحمد سيداري بن عبد الوهاب بن الوزير الذي «تغلب على أبي القاسم بن قسي في شعبان سنة أربعين وخمسمائة (1145)»[3]، ثم تاشفين اللمتوني الذي تمكّن من إعادة الاستيلاء على ميرتلة من يد الموحدين بين سنة 1147 إلى سنة 1157م[4].

يوجد بقصر ميرتلة ستة أبراج؛ بُرجان يُحيطان بالمدخل الرئيس، وبُرج من الناحية الشمالية الشرقية يُطلُّ على الحي الموحدي، وبُرجان قليلا الارتفاع في الركنين الجنوبيين الأيمن والأيسر، في حين أن البُرج الأخير ـ وهو البُرج الأهم والأكبر ـ يوجد في الناحية الشمالية الغربية، على المُنحدر الذي يُطل على رافد «أويراش»، ولعل تميز هذا البُرج يعود لموقعه الاستراتيجي إذ إنهُ يطل على طريق باجة؛ أي على النقطة الوحيدة التي تربط «شبه جزيرة ميرتلة» بالأرض؛ أي أنها ما يمكن أن نعدّه نقطة ضعف المدينة من الناحية العسكرية، ففي حين أن بقية الجهات محمية بمتاريس مائية طبيعية هي وادي يانة ورافد «أويراش»؛ فإن هذه النقطة مُعرضة أكثر للخطر، من هنا وجب أن يكون البُرج الذي يحميها شديد التحصين والجاهزية[5].

1 ـ ابن عذاري، **البيان المُغرب**، مصدر سابق، ج 2، ص 198.

2 ـ الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، مصدر سابق، ج 2، ص 20.

3 ـ ابن الأبار، **الحلة السيراء**، مصدر سابق، ج 2، ص 271.

4 ـ ابن عذاري، **البيان المُغرب**، قسم الموحدين، مصدر سابق، ص 57.

5 ـ زيارة ميدانية للموقع بتاريخ: 2010/07/06.

خاتمـة

كانت هــذه إذن جولة فــي أوجــه الحضور الإســلامي بمدينــة ميرتلة البرتغالية، حضور يعكس انفتاح هذه المدينة التي يلُفها وادي يانة مُعانقاً في قبلة لم تنته منذ الأزل، قبلة منحت المدينة ـ رغم حجمها الصغير ـ الحماية من خــلال ما يمثله الوادي من ســور طبيعي، وبثت فيهــا روح الحياة وثقافة المتوسط منذ العصور القديمة إلى الفترة الإسلامية، حيث لم ينقطع اتصال المدينة بالعالم المتوسطي وتياراته الاقتصادية والثقافية إلا بسقوطها في يد فرسان سانت يعقوب سنة 1238م، سقُوط أرخ لنهاية الحضور الإسلامي بغرب الأندلس، مع ضياع أحد أحصن قلاعه، ولِتحول المدينة من ميناء منفتح على جميع الأجناس والأعراق حيث تختلط لغات الباعــة والتجار، إلى مُجرد قلعة عسكرية لا تُسمع فيها إلا أبواق الحرب وصليلُ سُيوف الفرسان.